عطية الصيرفى (١)

«أصل الحكاية إننا مؤدبون أكثر من اللازم ومحترمون أكثر من اللازم، والجماهير مش كده لو عندها مطالب تلاقيها بتشاغب وتقوم بأعمال وأقوال غوغائية وأنا أراهن على قليل من الشغب والغوغائية فى أى تحرك أو فى أى كتابة ولهذا تجدنى أقرب إلى الجماهير».
عطية الصيرفى «خلال جلسة حوار»

ثمة خط رفيع فاصل بين الفعل الثورى والنضالى وبين الشغب الغوغائى.. وفوق هذا الخط تماما وقف عطية الصيرفى المناضل العمالى، وعطية ليس مجرد كمسارى أتوبيس ولا مناضل نقابى وسياسى لكنه اكتسب من إصراره على التعلم معرفة بالتاريخ وأخرى بالاقتصاد وفنون أخرى من المعارف لعلها اختلطت عنده بطريقة مبسطة لكنها آسرة، وتقرأ كتبه لتشعر بالحيرة فهل هذه كتابة عامل؟ والإجابة ليس هذا معتادا فى كتابات العمال. ثم تسأل هل هذه كتابة علمية فى تاريخ مصر أو تاريخ الطبقة العاملة، والإجابة: ليس تماما، وتبقى المفاضلة بين الشغب وبين العمل النضالى المتعقل هى محور علاقته بحزب التجمع وبالتحرك اليسارى عموما، ويستمتع عطية بذلك ويروق له دوما أن تدخل معه فى حوار حول هذا الأمر، وكلما قلت له هذا شغب استمتع وزاد من شغبه، وحتى عندما سجل لى بعضا من سيرته جعل عنوانها «لمحات من سيرة عامل مصرى مشاغب»، ونبدأ بحكايته عن نفسه. أمه فقدت كثيرا من أطفالها فلما ولدت عطية أسمته فى الحارة «الشحات».

الأب أسطى طباخ تفوق فى مهنته حتى أصبح طباخ البيه مأمور ميت غمر، ثم انتقل ليعمل لدى الأسر الإقطاعية، والأم هى أيضا - ويا للغرابة - أسطى فرانة، بدأت «الأسطى هانم» فرانة فى مخبز والدها وهى مهنة لا مجال فيها للنساء ثم تتلمذت على الأسطى وردة «اليهودية» الخياطة.

وعندما انتقل الأب إلى حلوان ليعمل لدى أسرة إقطاعية كبيرة عملت الأسطى هانم مقص دار فى محلات عمر أفندى، وتعيش الأسرة حياة عادية لا معاناة فيها حتى يموت الأب وعطية فى الثالثة من عمره، ثم تمرض الأم، لكنها تعتصر من بقايا صحتها قوتا له وفرصة كى يتعلم فى المدرسة الأولية لكن المصروفات «عشرون قرشا فى العام» تمثل عبئا ثقيلا على الأم فيترك المدرسة وينتهى به الأمر إلى مدرسة تحفيظ القرآن حيث ختم القرآن وفى المسابقة كان عطية الأول على القطر، وفى الاحتفال التقطت صورة للمتفوقين وكان أوائل الابتدائية فى الصفوف الأولى وحفظة القرآن فى الصفوف الخلفية.. ولم ينس عطية ذلك، ولم ينس أيضا أنه لم يستطع شراء نسخة من هذه الصورة، والتحق عطية بالمعهد الأزهرى.. لكن الفقر يلاحقه ويفرض عليه البحث عن لقمة خبز، وعمل فى مهن عديدة: صبى حداد.. صبى نحاس.. شيال فى محطة السكة الحديد.. عامل قصعة فى البنايات ثم عامل فى الكامب الإنجليزى.. عامل رش مبيدات.. مقرئ فى القرافة.. وأخيرا أصبح وهو محمل بكل هذا العذاب كمساريا فى شركة اتحاد الأوتوبيس فى زفتى ومیت غمر، أسبوعان فقط اكتشف فيهما مدى الظلم الواقع على العمال لا راحات نهائيا والمرتب هزيل، طالب بإجازة يومين فى الشهر دون أجر، وسأله المدير:اجازة ليه؟ فقال: علشان نغسل هدومنا مرة كل أسبوعين، ورفض المدير مهددا إياهم بالفصل، فرد عطية «الأرزاق على الله» وحتى هذه العبارة اعتبرها العمال شجاعة لا حدود لها.. واتخذوه زعيما، وخرج عطية من المقابلة ليرسل برقية إلى وزير الشئون الاجتماعية «نستصرخكم لرفع الظلم الواقع علينا، أغيثونا» وانقلبت الدنيا، فكيف لعامل أن يتحدى الشركة ويشكو للوزير، لكن عطية انتصر وأصبح «الشحات» زعيما عماليا انتشر صيته فى كل ميت غمر ومنها إلى كوم النور حيث طالب فى كلية الحقوق من أبناء كوم النور يعود كل إجازة صيفية هو كمال عبدالحليم، واتصل كمال بالشحات وأعطاه كتبا ولقنه محاضرات أضاءت أمامه سبل فجر متسع ومشرق من المعرفة، وأصبح عطية عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وإذ تشتعل مصر بالمظاهرات ضد الاحتلال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، تذكر عطية بعضا مما وعاه من معرفة بالتاريخ، وتذكر ثورة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فجند بعضا من العمال والطلاب من الوفديين وغطوا جدران ميت غمر وزفتى والقرى المجاورة بشعار تبدى للجميع مثيرا للدهشة لكنه منحهم حافزا قويا للثورة «يا شباب ١٩٤٥ كن

كشباب ١٩١٩» وبالفعل تفجرت ميت غمر بالمظاهرات وأسس عطية فيها مع الوفديين وعديد من النقابيين فرعا نشيطا للجنة الوطنية للطلبة والعمال، ومن ميت غمر إلى زفتى حيث حكى وحكى وبلا نهاية حكايات إعلان استقلال جمهورية زفتى على يدى يوسف الجندى وتحت قيادته وانتفضت معه زفتى، وأصبح الشحات زعيما سياسيا، الكمسارى المشاغب أصبح شيوعيا، لكنه ظل على الدوام قادرا أن يمزج شغبه بشيوعيته، أو يمزج شيوعيته بشغبه سيان، ويصعد عطية سريعا فى التنظيم الذى اتخذ اسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو» والأسطى هانم أصبحت هى أيضا شريكة له فى نضاله ودبرت له مخزنا للمطبوعات الحزبية ومخبئا للرفاق الهاربين أو المسئولين القادمين لمتابعة العمل الحزبى، ولم يجد خصوم عطية مطعنا عليه فأشاعوا أنه عميل لموسكو وأن موسكو ترسل له أموالا كثيرة، لكن الناس يتلفتون فيجدون الشحات شحاتا بالفعل ولا يمتلك أى شىء، وفى عام ١٩٤٨ يتمرد عطية على قرار قبول تقسيم فلسطين ويشكل مجموعة لتسافر للحرب فى فلسطين ثم هو يجمع قروشا من قوت الفقراء ليرسلها إلى المقاتلين كى يعيشوا بها، فأكد خصومه أنها أموال آتية من موسكو، ولعل هذه الشائعات التى لاحقته كانت سببا فى أن جعل شغبه حادا كسكين، واستمر دوما حادا كسكين.

ونتابع سيرة «الشحات» عطية الصيرفى فى كتابة قادمة.